السنة العاشرة من مولده ﷺ

وفيها كانت الفجارات، وكانت الدائرة فيها لقريش على قيس، وإنما سميت هذه الحروب فِجاراً، لأنها كانت في الأشهر الحرم. قال أبو عبيدة: لأنهم فجروا فيها فاستباحوا الأموال والنفوس. قال خداش بن زهير: [من الطويل]:

فلا تُوعِدُوني بالفِجَار فإنَّه أَحَلَّ ببَطْحاء الحجازِ المحارِما

وقال هشام بن محمد: كان الفجار الأول: بين كنانة وهوازن، والثاني: بين قريش وكنانة، والثالث: بين نصر بن معاوية وبين كنانة، والرابع: بين قريش وهوازن.

الفجار الأول: وسببه أن بدر بن معشر الكناني كان منيعاً، ورد سوق عُكاظ، وكان له مجلس يجلس فيه ويفتخر، ويشمخ على الناس ويقول: [من الرجز]

نحن بنو مُدرِكةَ بن خِنْدِفِ
مَنْ يطْعَنوا في عَيْنِه لم يطرفِ
ومن يكونوا قومَه يُغَطْرفِ
كأنَّهم لُجَّةُ بَحْرٍ مُسْدِفِ[1]

وكان يمد رجله وكان [يقول: أنا][2] أعزُّ العَربِ، فمن ادَّعى أنه أعز مني فليضربها، فوثب عليه رجل من هوازن ـ وقيل: من بني نصر بن معاوية ـ يقال له: الأُحيمر بن مازن، فضربه بالسيف على ركبته، فجرحه جرحاً يسيراً ـ وقيل: إنه أَنْدَرَها، والأول أصح ـ ثم قال:

خذها إليك أيها المُخَنْدِف
نحن بنو دهمان ذو التَّغَطْرُف
نحنُ ضربْنَا ركبَةَ المعجْرِفِ
إذ مدَّها في أَشْهُرِ المعرَّفِ[3]

---

(١) مسدف: مظلم.

(٢) ما بين معقوفتين زيادة من «العقد الفريد» ٥/ ٢٥١.

(٣) جعله ابن الجوزي في «المنتظم» ٢/ ٢٩٠ من كلام رجل آخر من هوازن.

ونشبت الحربُ، ثم نظروا فإذا الخطب يسير فكفوا.

الفجار الثاني: اجتمع شباب من كِنانة في سوق عُكاظ، وفيه امرأة من بني عامر وَسيمةٌ جَسيمة، جالسة وعليها دِرْعُها، فسألوها أن تُسْفِرَ عن وَجْهِها فأبت، فجاء أحدهم من خلفها فحل طرف درعها وشده إلى ما فوق عَجُزِها بشوكة، فلما قامت ارتفع درعها، فبدت عورتها فضحكوا، وقالوا: منعتينا النظر إلى وجهك، وَجُدْتِ لنا بالنظر إلى دُبْرِك. فنادت: يا آل عامر، فأجابوها. ونادى الشباب: يا آل كِنانة. وتثاوَر الحيَّانِ واقتتلوا، ووقعت بينهم دماءٌ كثيرة، فتوسطها حرب بن أمية، وأرضى بني عامر من مُثْلَةِ صاحبتهم.

الفجار الثالث: وسببه أن رجلاً من بني كِنانة كان له على رجل من بني نَصْر بن معاوية دَيْن، فوافى النَّصْري الكناني، فطالبه به وذكر قومَه بسوء، وسمعه رجل من بني كنانة، فقام إليه فضربه فقتله، وثار الحيان واقتتلوا، ثم حمل الدين عبدالله بن جُدْعان من ماله واتَّفقوا.

الفجار الرابع: وكان أَعظَمَها، وكان الذي أهاجه: أنَّ النعمان بن المنذر اللخمي ملكُ الحيرة كان يبعث[1] في كل سنة إلى سوق عكاظ بِلَطيمة ـ وهي التي تحمل الطيب وَبَزَّ التجار ـ في جوار رجل شريف من أشراف العرب يُجيرها له، فتباع ويُشترى له بها من أَدَم الطائف، وما يحتاج إليه، وكانت سوق عكاظ تقوم في كل يوم من ذي القعدة إلى انسلاخ المحرم، وقيل: أول يوم من ذي الحِجة، يتسوَّقون بحضور الحج، ثم يحجون وينفصلون، وعكاظ بين نخلة والطائف، وكانوا إذا اجتمعوا أَمِن بعضهم بعضاً.

فلما جهز النعمان اللطيمة وعنده جماعة من العرب فيهم: البَرَّاضُ بن قيس أحد بني بكر بن عبدمناف بن كنانة، والرَّحَّال، وهو عروة [ابن عتبة]بن جعفر بن كلاب، فقال البَرَّاض: أجيرها على بني كنانة؟ فقال النعمان: ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتِهامة، فقال الرَّحَّال ـ وهو يومئذ رجل من بني هوازن[2]: أنا أجيرها لك. فقال

(١) في النسخ: «يُبعث إليه» والمثبت من العقد ٥/ ٢٥٣ وما سبق فيه، وما سيرد بين معكوفين منه.

(٢) في النسخ: «كنانة» والمثبت من العقد الفريد.

البَرَّاض: أَعَلى بني كنانة تُجيرها؟ قال عروة: نعم، وعلى أهل الشِّيح والقَيْصوم. ونال من البَرَّاض، وقال: أجيرها على الناس كلهم، فدفعها إليه النعمان وخرج بها الرَّحَّال، وتبعه البَرَّاض والرَّحَّال لا يخشى منه ولا مِن غيره شيئاً، فسار حتى نزل جانب فَدَك بأرض يقال لها: أُوَارة[1]، فشرب الخمر وغنَّته القَيْنات وسَكِر، فنام، وجاءه البَرَّاض فاستيقظ فحمل عليه، فقال الرَّحَّال: ناشدتك الله لا تقتلني فقد كانت منِّي زلَّة وهفوة، فلم يلتفت إليه وقتله، واستاق اللَّطيمة نحو خيبر وقال: [من الرجز]

قَدْ كانَتِ الغَفْلةُ منِّي ضَلَّه
هلَّا على غيري جَعَلْتَ الزَّلَّه
فسوفَ أعلو بالحسام القُلَّه

وتبعه المُساوِر بن مالك الغَطَفاني وأسد بن خُثَيْم الغَنَوي، ولم يعلم بهما البَرَّاض حتى دخل خيبر فرآهما، فقال: من أنتما؟ فانتسبا له، فقال: وما شأنكما بهذه الأرض التي ليست لكما بأرض؟ قالا: ومن أنت؟ قال: أنا من أهل خيبر. قالا: هل لك عِلْمٌ بالبَرَّاض؟ قال: نعم، دخل علينا طريداً، فلم يأْوِه أَحدٌ منا، قالا: فدُلَّنا عليه. فقال: هو نائم خلف هذا الجدار، فنزلا وعقلا راحلتيهما، ودخلا فدخل وراءهما فقتلهما وأخذ راحلتيهما وسلاحهما، ثم إن البَرَّاض لقي بشر بن أبي خازم الأَسَدي الشاعر فأخبره الخبر، وقال: أخبر عبدالله بن جُدعان وقريشاً، ومُرْهم يوافوا سوق عكاظ، وخبر قيس بن عيلان خبر البَرَّاض، وما فعل الرَّحَّال، فثاروا وأجمعوا، وعليهم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر، ودريد بن الصِّمة، ومسعود بن مغيث الثقفي أبو عروة، وكانت رايتهم بيد أبي براء، وهو المقدَّمُ عليهم، وخرجت قريش وعليهم عبدالله بن جُدْعان، وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية، وعتبة بن ربيعة، وانضافت إليهم كِنانة، وأسد، وخزيمة، والأحابيش، والقارة، وعُضَل، وعلى الجميع عبدالله بن جُدْعان، ولما اجتمعوا طلبوا قريشاً، فدخلوا الحرم ونادى حرب بن أمية ـ وقيل: رجل من بني عامر يقال له: الأدرم بن شعيب ـ: يا معاشر قريش، موعدكم هذا المكان من قابل،

(١) في النسخ: «امرى»؟!

فقال خداش بن زهير: [من البسيط]

يـا شـدَّةً مـا شـدَدْنـا غـيـرَ كـاذبـةٍ على سَخينةَ لولا اللَّيلُ والحَرَمُ

لـمَّـا رأوْا خـيـلـنـا تُـزْجـي أَعِـنَّـتَـهـا آسـادُ غِـيـلٍ حَـمـى أشـبـالَـهـا الأَجَـمُ

وأقامت قريش تتأهب سنةً حتى التقوا في العام القابل، وقيل: التقوا في هذا العام، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الدائرة في أول النهار على قريش فقتلتهم قيس قتلاً ذريعاً، ثم كانت الدائرة في آخر النهار على قيس فقتلت منهم قريش مقتلة عظيمة، وحضر رسول الله ﷺ آخر النهار مع عمومته، ورمى فيه بأَسْهُم وقال ﷺ: «كنتُ أُنَبِّل فيه لأَعْمامي - أي: أُناوِلُهم النَّبْلَ - وما أُحبُّ أنِّي لم أَحْضُر». ولما حجز بينهم الليل، باتوا على راياتهم، فلما أصبحوا نادى عُتبة بن ربيعة - وهو يومئذ شابٌّ لم يبلغ ثلاثين سنة -: الصُّلْح أَصْلَح. فأجابوا وعدوا القَتلَى، ووَدَتْ قريشٌ قتلى قيس، ووضعت الحرب أوزارها.

وقال أبو عبيدة: أَبت بنو كلاب أن تقتل البَرَّاض بالرَّحَّال، لأنَّ البَرَّاض كان خليعاً في كنانة، وكان الرَّحَّال سيد هوازن، فأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قريش[1].

وكان لرسول الله ﷺ يومئذ عشر سنين، وقيل: أربع عشرة سنة، وقيل: عشرون سنة، والأول أصح.

* * *

السنة الثانية عشرة من مولده ﷺ

فيها سمع رسول الله ﷺ كلاماً من فوق رأسه[2].

* * *

(١) «السيرة» لابن هشام ١/ ١٦٨، و«الطبقات الكبرى» ١/ ١٠٤، و«الكامل» ١/ ٥٨٩، و«المنتظم» ٢/ ٢٩٦.

(٢) انظر «المنتظم» ٢/ ٢٩١.